الشيخ محمد عبده والجامعة

بعد المناظرة

وقبل وفاة الاستاذ بعام ذهب في الصيف الى بلاد الانكليز ومن هناك عرج على الجزائر وتونس فلقي في بلاد انكلترا والاقطار التونسية والجزائرية من الاجلال والاكرام ما لا يلقاه الا العظماء والامراء. وقد استقبله علماء الانكليز واساتذتهم استقبالاً يفوق استقبالهم استاذه جمال الدين الافغاني. لان الاستاذ المفتي سار اليهم وهو لا يحمل فقط قبس العلم الشرقي بل كان يحمل ايضاً وظيفة الافتاء الكبرى للمسلمين في جميع الاقطار

وقبل عودته من سياحته هذه اذاع بعض مناظري « الجامعة » في مصر في الصحافة المصرية انه قبل وصول المفتي الى الجزائر وتونس أُرسلت وشايتان من مصر الى حاكم الجزائر في حق فضيلته واحدة من مصر « وواحدة من الاسكندرية » ومضمونها تحريض حاكم الجزائر الفرنسوي على الشيخ محمد عبده بتهمة انه صديق للانكليز وانه في سياحته هذه في المستعمرات الفرنسوية سينشر نفوذهم وينفر الجزائريين والتونسيين من الحكم الفرنسوي ويدعو الى عصبة عربية لمقاومتهم. وقد نشرت احدى الجرائد السورية المصرية اليومية الكبرى يومئذ هذا الخبر كما اذاعه مناظرو الجامعة. فعلمت من قولهم « وواحدة من الاسكندرية » انهم يعنون به « الجامعة » وبما ان نفسي لا تشمئز من شيء في الدنيا اشمئزازها من تهمة الوشاية والسعاية رأيت من واجباتي بعد عودة المفتي من تونس ان اكتب اليه الكتاب التالي. ونسخ الكتب التي كتبتها لفضيلته مكتوبة عندي بقلم رصاص وقد غاب معظم الكتابة الآن

« لحضرة الاستاذ الكريم فضيلتلو الشيخ محمد عنده مفتي الديار المصرية المحترم نفعنا الله بعلمه

« بعد ان اهنئكم بالعودة سالمين من سياحتكم ارجو ان يكون الزمان ومداخلة اصحاب الاغراض لم يغيرا ما أُفتخر به من وداد كم لي وللجامعة. واغتنم هذه الفرصة لاستاذن فضيلتكم في نقل درسكم البليغ الذي ينشره المؤيد في « العلم والعليم » (١) الى صفحات الجامعة مع الالمام بشيء من سياحتكم في الغرب التي فيها شرف للشرق. ولي في ذلك غرضان الاول

---

(١) هو الدرس الذي القاه الاستاذ في جامع تونس الكبير بطلب بعض علمائها الافاضل

الدلالة على بقاء المجلة على الاخلاص لفضيلتكم مع كل ما وجه اليها من السب والقذف وتعمد الضر . والثاني لكي تعلموا فضيلتكم ان ما نشره « فلان » عن ارسال وشايات بسيادتكم الى الجزائر واحدة من مصر « وواحدة من الاسكندرية » هو اولاً نقض للعهد (١) وثانياً اختلاق محض يظن انه خدمة لفضيلتكم مع انه مضر باسمكم الجليل الذي صار الوم يضره المدح بصورة كهذه الصورة لانه يدل القارىء على وجود خصوم له ينكرون عليه فضله . وغني عن البيان انه لو « أرسلت رسالة وشاية في فضيلتكم من الاسكندرية » لما تسنى « لفلان » ان يدري بها لان رئاسة غرفة حاكم الجزائر الوطنية مشتركة في الجامعة والرسائل بينهما لا يطلع عليها احد . ولم اذكر ذلك لتبرئة الجامعة لديكم من كذب عليها لانكم تعلمون فضيلتكم ان الخصوم الكرام لا يتسفلون الى هذه الدركات بل اذا ارادوا سوءًا جهروا به وطعنوا في الصدور لا في الظهور . ولكن ذكرته لعله يكون في هذا الحادث ما يجعل « فلانًا » يرعوي قليلاً و يفيق من نشوته . وانا في كل حال من اخلص الناس لفضيلتكم واعرفهم بفضلكم »

وكان هذا الكتاب اول خطاب بيننا بعد المناظرة . فاجاب فضيلته عليه بالكتاب التالي :

« الآن وصلني رقيمك واشكرك على التهنئة وعلى الميل الى استدامة الصلة . واحب ان تعرف ان ما يسمى وشايات لا سلطان له عليّ واني لا آخذ بالكلمة تلقى اليّ الا اذا قام عليها من الادلة ما يحصل اليقين . ثم ان قلبي لا يسع ما يسميه الناس عداوة وليس فيه مكان لذلك . ولكن قلبي قد يحتقر ما لا قيمة له . احيانًا يُظهر ما يجد من ذلك واحيانًا لا يبالي باظهاره ولا كتمانه . وما ذكرتَ مما ذكر « فلان » لم اطلع عليه او لم التفت اليه ولا وقت عندي لتحقيقه على انه ان لم يكن فيه الا « وواحدة من الاسكندرية » فليس فيه لا تلميح ولا تصريح بذكرك فلم حملته على نفسك . على انني قد علمت حق العلم ان وشاية او تقريرًا او ما شئت فسمه ذهب من الاسكندرية الى الجزائر ولكنك لم تخطر ببالي عندما تحققت ذلك فلم تسىء الظن لمجرد ذكر لفظ يشمل مدينة بتمامها فيها من يشتغل بهذه السفاسف كثير لا يليق بهم ان يكونوا في عمل مثل عمل مجلتك

« وانك لو راجعت دفتر اعمالك لوجدتَ من اكبر ما يصح لقلبي ان يتأثر له ذلك

---

(١) اي العهد الذي أُبرم بالخروج من المناظرة واقفال بابها بين الجامعة ومناظريها

المطبوع «١» الذي ارسلته اليَّ وبعثتُ به الى (فلان) «٢» ولكيلا يبقى منه اثر في نفسي لم أبقِ له اثرًا عندي. وعلى كل حال فلا تجعل لهذه الامور سلطة على نفسك ولا اظن ان عنفوان الشبيبة يمنعك من بذل الجهد فيما احب لك ولكل من يعمل عملاً يرجى منه الخير ويخشى منه الشر في الشرق

«اما ذكرك لمجمل ما القيته في تونس فاليك من ذلك ما تحب غير اني اوجب ان يُنسب الى جريدة (الحاضرة) التي تُنشر في تلك المدينة لامرين الاول انه من حقها والثاني انه بعبارة صاحبها ونيابها ما لا يصدر من قلمي العربي عادةً. واذا اشرتَ الى شيءٍ من سياحتي فليكن بعد تحري ما تعلم من ذلك»

فانت ترى ان الاستاذ رحمه الله وضع في جوابه خلاً وخمرًا. وقد ابتسمتُ لما قرأت قوله فيه عن (عنفوان الشبيبة) مع ان الجامعة كانت مدافعة لا مهاجمة ولم يبدر من قلمها كلمة خارجة عن حدود الادب. ولكن المناصب العليا تصيب اصحابها بنوع من الدوار كما يقول الفرنسويون في امثالهم فاذا آنسوا اقل جراءة وثبات جاش من احد عدوه تحاملاً وتهجمًا عليهم. ولكني اذا كنت قد ابتسمت لعبارة الاستاذ في (عنفوان الشبيبة) فانني استأت حقيقةً من كلمة وردت في السطر الرابع. فاجبته بالحال بالجواب التالي

« مولانا الاستاذ

« تناولت كتابكم بسرور واني اشكر لفضيلتكم ما ورد فيه على انه ظهر لي من بعض عبارات اقبلها رغماً عني احترامًا لكم ان الزمن الذي ستتصفون فيه الجامعة فيما يختص بالحوادث الماضية لم يحن بعد (ثم بعد كلام طويل ورد فيه شرح الاسباب التي اوجبت على الجامعة الدخول في هذه المناظرة) هذه عبارات وجدت من واجباتي ان اعرضها على فضيلتكم

---

(١) يريد المنشور الذي لم يوزع وقد ورد ذكره في آخر المقالة السابقة في الجزء السابق

(٢) لم نرسل المنشور الى فضيلته رأساً ولكن كاتب ادارة الجامعة كتب بتوقيعه كتابًا الى سكرتير المفتي يقول له فيه ان يبلغ فضيلته المنشور حسماً للنزاع اذا كان فضيلته يروم ايقاف توزيعه على الشرط الذي تقدم ذكره. وفضيلته لم يرسل المنشور الى « فلان » لان سعادته الحَّ ضاحكاً بطلب نسخة منه ليقف عليه فلو أُرسل الى سعادته لما طلب من الجامعة نسخة منه

بعد تشرفي بقراءة كتابكم وانا على يقين من انكم « تحتقرون » الجامعة حقيقةً اذا لم تصدر عنها بعده . واذا كانت فضيلتكم حتى الآن لا تعتقدون بحسن نيتي من جهتكم وحرصي على وداد كم في كل ما جرى فانني اضيع وقتكم عبثًا واخطب وداد كم على غير جدوى

« اما ما تفضلتم بذكره بشأن « رسالة الاسكندرية » فانني اشكر فضلكم عليه . ولكن انكار فلان انه لا يعني الجامعة لا يمنع انه كان يقصدها لان الناس فهموا ذلك من كتابته وقد سألني ثلاثة من الاصدقاء عن ذلك عند قراءتهم الخبر في جريدة « كذا » « احدى الجرائد اليومية » وهذا من قبيل قوله حينًا بعد آخر « تلك المجلة البروتستنتية » يعني مجلة للبروتستنت يناظرها وتناظره وغرضه من ذلك ان يوهم السذج انه يقصد الجامعة وهو لا يقصدها في الحقيقة . وارجو من فضيلتكم ان تسمحوا لي ان اقول ان اكابر المسلمين المتقدمين كانوا يجتذبون القلوب الى الاسلام بمكارم الاخلاق وحسن السيرة والسريرة . « وهذا الاسلام » الذي يتخذ الفضائل الخلقية منارًا له وكل دين يحذو هذا الحذو انما نعشقه نحن معاشر طلاب الحقيقة بالعقل دون سواه لانه انما يكون مبنيًا على الطهارة القلبية المطلقة . ولكن متى خرج عنها بالافتراء والمواربة فبذلك يكون داعيًا الى تنفير الناس منه بدل اجتذابهم الى مبادئه »

فيظهر ان الاستاذ اراد ان يزيل من نفسي اثر كلمة وردت في كتابه الاول فاجاب بكتاب آخر رفع به الكلمة المقصودة ولكنه غمز ولكز بكلام غيرها وهذا كتابه بحرفه

« حضرة الفاضل

« لو احتقرتك ما كتبتُ اليك كلمةً وانك لتسيء الظن بنفسك اكثر مما يسيئه غيرك وكنت اود لو كنتَ لنفسك افضل مما انت لها اليوم ولكن اللهم عرّفنا باقدار انفسنا فذلك اللهم انفس ما تعطي وافضل ما تهب »

فاجبته بالجواب التالي

« مولانا الاستاذ

« زادت ممنونيتي لفضيلتكم بعد ان علمت من كتابكم الاخير انكم لا تريدون بالكلمة الواردة في كتابكم السابق سوءًا بهذا الداعي وهذا ما كنت انتظر من فضيلتكم ايضاحه «(١)»

---

(١) لما كتبت هذه العبارة ترددت في كتابتها لانها تجعل كتابه الاخير عبارة عن اعتذار

فان مولانا الاستاذ هو اليوم امير الفكر الشرقي والمفكرين . والامراء والملوك يكونون على الدوام فوق الاحراب لانهم يحسبون الجميع رعية لهم وعليهم العدل والمساواة بينهم . فاذا حدث ما يسؤهم من احدهم كان لهم فضل تناسي ما مضى مرة واحدة وطمره لا نبشه بالعودة اليه لان نبشه يدفع كل واحد الى التمسك بحقه ليكون مستريح الضمير مع نفسه . وعندي ان الاستاذ اذا راى من بعض تلامذته ومريديه كهذا الداعي شيئاً من الاباء عن الضيم وان كان الضيم في عبارة واحدة او عبارتين فقط فانه يحق له ان يسرّ بذلك لما يشاهده من آثار دروسه في نفوس الناس وانتفاعهم بها . فياليت مولانا الاستاذ اوّل كتابي الماضي هذا التاويل بدل التاويل الذي ورد في كتابه

« وانني في كل حال شاكر لفضيلته عنايته والتفاته الى هذا الداعي وتشريفي بكتابيه واسأل فضيلته المعذرة لاشغالي وقته الثمين بهذا الموضوع والسلام باحترام »

ثم مرّت شهور على هذين الكتابين وظهر لنا انهما تركا في نفس فضيلته شيئاً من الاستياء لان فضيلته لم يتعوّد قط ان يقابَل من احد بلهجة كهذه اللهجة . فان التمليق سائد على الاخلاق في الشرق ومتى ارتفع شخص انحنت امامه الهام ورُفعت اليه الصلاة والصيام . واذا كان كالاستاذ ممن يضرون وينفعون ويخفضون ويرفعون فانه لايجد امامه الا قوماً يتملقون ويستجدون . ولكن الاستاذ رحمه الله كان ذا نفس كبيرة تفهم العواطف الكبيرة ولذلك كان استياؤه من الجامعة ممزوجاً على الدوام بالميل اليها تفضلاً منه وكرماً . أضف الى ذلك انه كان رحمه الله يرعى شهرته واسمه رعاية شديدة وكان يعلم ان للصحف تأثيراً شديداً في هذا الشان فكان يبذل جهده في مسالمتها واتقاء اذاها . وكنا لا نجهل عواطفه هذه فرغبة في ازالة كل اثر سيء للكتابين من نفسه اغتنمنا فرصة سنحت لاستفتائه في موضوع اسلامي اجتماعي هام فبعث فضيلته الى الجامعة بفتوى رسمية موقعة كذا (محمد عبده مفتي الديار المصرية) وسنشرح هذا الموضوع الهام ونلخص فتوى الاستاذ في الجزء التالي